المحاضرة الثالثة: مصدر القيمة الأخلاقية وطبيعتها

تعددت الاتجاهات الفكرية في تحديد مصدر القيم الأخلاقية في المجتمع، وكذلك في تحديد طبيعة هذه القيم، ويمكننا أن نستعرض أهم التيارات الفكرية التي تناولت القيم الأخلاقية من حيث مصدرها، ومن حيث طبيعتها:

أولا: مصدر القيمة الأخلاقية

1 ـ الاتجاه الديني:

يعتقد أصحاب هذا الاتجاه أنَّ الدين هو المصدر الأساسي للتشريع الأخلاقي والقيمي، وأن الأخلاق تستمدُّ مشروعيتها من أوامر الدين ونواهيه وتشريعاته. فالأخلاق وفقا لأصحاب هذا التيار تنبثق عن المعتقدات الدينية، فالدين يمتلك قوة هائلة في توليد الأحكام الأخلاقية لدى الأفراد والجماعات. وهذا ما يمكن أن نجده لدى الديانات الآشورية، والبابلية ، والمصرية، والكلدانية، والإغريقية، كما في الديانات الوضعية، كالكونفوشيوسية، والمزدكية والمانويّة ، والهندوسية، والبوذية.

لقد جاءت الديانات السماوية مضمخة بعبق القيم الأخلاقية ، فكانت الأخلاق مبتدأ هذه الديانات وخبرها، وتأخذ الرسالة الأخلاقية في الإسلام دورتها الإنسانية العظمى، وتتجلى هذه الرسالة في قول النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ). وكان الإسلام كالديانات السابقة يتضمن دعوة أخلاقية متكاملة الأركان شملت أعظم وأسمى وأرقى الفضائل الإنسانية التي تشد الإنسان إلى أخيه الإنسان، فاستطاع بقيمه الأخلاقية أن ينتشر في أصقاع الأرض ومضاربها انطلاقا من سمو القيم التي نادى بها وأعلنها. وفي الفلسفة الإسلامية نجد فرقة الأشاعرة التي أكدت أن حسن الأفعال وقبحها أو خيرية الأفعال وشريتها إنما هي من الشرع، أي أن الأفعال في ذاتها لا تحمل ما يشير إلى كونها حسنة أو قبيحة، وإنما تصبح كذلك بالأمر أو النهي الإلهي. قال أبو الحسن الأشعري" بقوله:(إن الخير والشر بقضاء الله وقدره). وهو نفس

ما ذهب إليه الإمام " ابن حزم الأندلسي" حين رأى بأن الأشياء لا تحمل حسنها وقبحها في ذاتها، بل إن الحسن والقبيح والخير والشر بحسب إرادة الله وما جاء به الشرع أمرا أو نهيا.

ولهذا يمكن الإشارة إلى أن الديانات السماوية والوضعية قد جاءت إلى ترسيخ القيم الأخلاقية في الإنسانية، حيث وهبتها معنى الحياة وقيمة السمو الأخلاقي.

2 ـ الاتجاه المثالي:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الأخلاق قيم مجردة، تأخذ طابع مثل كونية، كامنة في النفس كمون النار في الحجر، فهي تنتسب إلى عالم علوي سماوي، حيث تحلق النفس والروح الإنسانية قبل الحلول في الجسد. ويعد أفلاطون زعيم هذا النزعة المثالية في نظريته حول المثل حيث كان يميز بين العالم الواقعي وعالم المثل الذي تكمن فيه القيم الخالدة للحق والخير والجمال، ويتربع عرش هذه المثل مثال الخير الذي يمثل مطلق الوجود وغايته. فالأخلاق وفقا لهذه الرؤية تمثل عقلا كونيا منطلقا خارج دائرة الوجود المادي. وهذا يعني أن الأخلاق قائمة في الروح والعقل، الذي يشكل موطن القيمة الأخلاقية ومعقلها.

3 ـ الاتجاه العقلي:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن العقل مصدر الأخلاق، ويعد سقراط زعيم هذه النزعة العقلانية في الأخلاق، حيث ربط جوهريا بين الخير والمعرفة، ووجد بأن المعرفة هي موطن الخير وأن العقل مصدر الفضيلة بالمطلق، فمن عرف الخير استجاب لمتطلباته استجابة عفوية مطلقة وضرورية. وفي العصور الحديثة يعد كانط من أبرز رواد هذا الاتجاه، حيث يرى بأن الأخلاق تصدر عن العقل الكلي الكوني المتمثل في مطلق الواجب ومتطلباته العليا. فالعقل يشكل وفقا له مصدر القيمة الأخلاقية لا بل هو عينها وذاتها.

4 ـ الاتجاه الاجتماعي:

يرتسم هذا الاتجاه في النظرية الاجتماعية عند دوركايم الذي يعدّ أفضل ممثل للاتجاه الاجتماعي في الأخلاق. فالمجتمع وفقا لهذه النظرية يشكل مصدر الأنظمة الأخلاقية، إذ تنبع القيم الأخلاقية

من دواعي الحياة الاجتماعية ومتطلباتها، ويؤمن أصحاب هذا الاتجاه بأن الأخلاق نسبية، وهي تتغير بتغير المجتمعات وتتنوع بتنوع الأنظمة الاجتماعية. فالأخلاق ترتبط بالحياة الاجتماعية وتنبثق من صلب التفاعلات الاجتماعية، حيث يقوم كل مجتمع بفرض قيم ومعايير أخلاقية، تنسجم مع طبيعته الاجتماعية وتتناغم مع فلسفته الأخلاقية.

5 ــ الاتجاه الطبيعي:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أنَّ الطبيعة الإنسانية تشكل المصدر الحيوي للأخلاق، ويعد كونفوشيوس فيلسوف الصين العظيم من أبرز المفكرين الذين نظروا للأخلاق بوصفها نتاجا للطبيعية، وأسسوا للتربية الأخلاقية بوصفها تربية بموجب الطبيعية. يقول كونفوشيوس في هذا الخصوص: (الطبيعة هي ما منحتنا إيّاه الآلهة، والسير بمقتضى شروط الطبيعة هو السير في صراط الواجب، وإدارة هذا الصراط وتنظيمه هو القصد من التربية والتعليم).

وينقسم أصحاب هذا التيار إلى ثلاثة تيارات: يرى أصحاب **التيار الأول** أن الطبيعة الإنسانية شريرة، وأن الشر كامن في جبلّة الإنسان وفطرته، فالشر أصيل في الإنسان كما يرى جون لوك وتوماس هوبز، وهما من أبرز رواد هذا الاتجاه. أما أصحاب **التيار الثاني** فيرون أن الطبيعة الإنسانية خيرة، وأن الخير كامن فيها بالضرورة، ويتزعم هذا الاتجاه ابن طفيل وجان جاك روسو وكونفوشيوس. أما أصحاب التيار **الثالث** والأخير، فيرون بأن الشر والخير كلاهما ماثل في الطبيعة الإنسانية، وأن الأخلاق تصدر عن الصراع بين قوى الخير والشر الكامنة في الطبيعية الإنسانية. فالشر يكمن في الرغبات والشهوات، بينما يكمن الخير في العقل والروح والضمير الإنساني، والخير مرهون بانتصار العقل على الشهوة في الوقت الذي يرتهن فيه الشر بانتصار الشهوة، فالخير والشر يتأتيان من طبيعة الصراع بين الجوانب الخيرة والشريرة، أي بين العقل والشهوة، ويعد أفلاطون من أبرز ممثلي هذا الاتجاه الثنائي للصراع بين الفطرتين.

6 ـ الاتجاه النفسي السيكولوجي:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الأخلاق تصدر عن البنية النفسية للإنسان، وهي متأصلة في هذه البنية بما تنطوي عليه من تفاعلات وديناميات سيكولوجية، ومن أبرز أصحاب هذا التيار الفيلسوف النمساوي سيغموند فرويد زعيم مدرسة التحليل النفسي، الذي يوظف الطاقة الرمزية للأساطير في تفسيره السيكولوجي لنشأة الحياة الأخلاقية وتطورها. ويصف فرويد الضمير بأنه " الأنا الأعلى" وهو المنطقة الأكثر قدسية في الكيان السيكولوجي للفرد، فالأنا الأعلى هو المحكمة العليا في الكيان الإنساني، والتي تعنى بإصدار الأحكام الأخلاقية، وتوجيه الفعل الإنساني توجيها أخلاقيا ينشد الخير والحق والجمال، ويرفض الباطل والشر والفساد. وإذا كان الأنا الأعلى هو الضمير الأخلاقي فإن فرويد يرى بأن " الهو" هو منطقة الغرائز والميول في الكيان النفسي، ويمثل منطقة الشهوة، حيث يعبر عن مطالب الجسد، تلبية للرغبة والميول الطبيعية الغرائزية في الإنسان. وعلى هذا النحو يتجلى الأنا الأعلى في صوت الحق والضمير والقيمة الأخلاقية، في الوقت الذي يعبر فيه " الهو" عن صوت الشهوة والرغبة والميل والعاطفة والهوى. والحياة الأخلاقية تكون بالصراع الأبدي ما بين الأنا الأعلى وما بين الهو منطقة الرغائب والميول والشهوات، إنه صراع الجسد والعقل، بل هو صراع النور والظلام في كيان الفرد النفسي.

7 ـ الاتجاه النفعي البراغماتي:

يعتقد أصحاب هذا الاتجاه منذ عهد أرستيب وأبيقور، بأن اللذة هي صوت الطبيعية، وإن إشباع الميول والرغبات هي مصدر السعادة، وأن السعادة بإشباع الميول رهينة. وقد تطورت هذه الرؤية في التركيز على مبدأ اللذات العقلية والروحية، فوضعوا لها تصنيفات وحدود رائعة في تناسقها وإعجازها. ويمثل هذه الرؤية في العصر الحديث بنتام وأصحاب النزعة البراغماتية الذين يعتقدون بأن تحقيق التوازن بين الإنسان والوسط عبر تحقيق إشباع الحاجات الإنسانية الضرورية يشكل المصدر الحقيقي لكل القيم الأخلاقية والإنسانية.

ثانيا: طبيعة القيمة الأخلاقية

هل القيمة الأخلاقية مطلقة وثابتة أم أنها نسبية ومتغيرة ؟

1 ــ الأخلاق المطلقة:

يعتقد أنصار هذا الرأي وهم بعض علماء الكلام في الفلسفة الإسلامية وفلاسفة المذهب العقلي أن القيم الأخلاقية واحدة لقيامها على أساس من الثوابت على الرغم من اختلافهم في تحديد أساس القيم الأخلاقية.

يرى بعض علماء الكلام في الفلسفة الإسلامية أن الأخلاق جزء جوهري من الدين، حيث ترى **المعتزلة** أن حسن الأفعال وقبحها، أو خيرية الأفعال وشريتها تكمن في ذاتها، هذا يعني أن القيم الأخلاقية موجودة في الأفعال ذاتها، والعقل هو الذي يدركها وليس الشرع، لأن الشرع في نظر المعتزلة عندما يأمرنا بأفعال وينهانا عن أفعال أخرى، إنما يتبع ذلك ما في الأفعال من حسن وقبح، فأمره بالمحافظة على الأنفس والأموال، إنما لما فيها من حسن، ونهيه عن القتل والسرقة لما فيها من قبح، ولذلك فالعقل هو المثبت لخيرية الأفعال وشريتها، لكونه يستطيع أن يدرك ويميز بين ما هو حسن وما هو قبيح، واستدلوا على ذلك بمبررات نذكر من بينها : أن الناس أدركوا الحسن والقبح قبل نزول الوحي، كما أن مجهود الرسل في إقناع الناس مبني على العقل. غير أن فرقة **الأشاعرة** تعترض على موقف المعتزلة حيث تؤكد على أن حسن الأفعال وقبحها أو خيرية الأفعال وشريتها إنما هي من الشرع، أي أن الأفعال في ذاتها لا تحمل ما يشير إلى كونها حسنة أو قبيحة، وإنما تصبح كذلك بالأمر أو النهي الإلهي. فالشرع في أمره ونهيه مثبت لصفات الأفعال، مما يؤدي إلى إبطال القول بأن خيرية الأفعال وشريتها مستمدة من ذاتها. وقد أكد ذلك" أبو الحسن الأشعري" بقوله:(إن الخير والشر بقضاء الله وقدره). وهو نفس ما ذهب إليه الإمام " **ابن حزم الأندلسي**" حين رأى بأن الأشياء لا تحمل حسنها وقبحها في ذاتها، بل إن الحسن والقبيح والخير والشر بحسب إرادة الله وما جاء به الشرع أمرا أو نهيا.

أما فلاسفة المذهب العقلي يرون أن الإنسان كائن عاقل بالدرجة الأولى، وعقله ليس ملكة للفهم والمعرفة فحسب، بل هو مصدر الفعل الأخلاقي. ويعتبر الفيلسوف اليوناني **أفلاطون** من الذين يعتقدون بوجود علم أو حكمة سامية غرضها الأقصى هو الخير المطلق، ومعرفة هذا العلم وفي كل ما نرغب فيه يكون عن طريق العقل. حيث يقول: " إن الخير فوق الوجود شرفا وقوة " وهذا لا يعني أن الخير لا وجود له، وإنما يعني أن وجوده أسمى كحقيقة مثالية من الوجود الواقعي، لأنه إدراك عقلي لقيمة الخير، وتقسم أفعال الناس إلى القوة العاقلة والقوة الغضبية والقوة الشهوانية، وأن قوى النفس الثلاثة تدبرها ثلاث فضائل: الحكمة وهي فضيلة العقل، والشجاعة وهي فضيلة القوة الغضبية، والعفة وهي فضيلة القوة الشهوانية، والحكمة رأس الفضائل كلها، لأنها تحد من طغيان القوة الغضبية والقوة الشهوانية معا، وإذا انقادت الشهوانية للغضبية والغضبية للعقل تحقق التناسق والتناسب في النفس، وهي الحالة التي يسميها أفلاطون بالعدالة.

وفي سياق هذه الفلسفة الأخلاقية ذاتها نجد الفيلسوف الألماني **كانط** يرى أن القواعد الأخلاقية مصدرها العقل لا التجربة، وهذه القواعد تتصف بشروط أولية لمعرفة العالم الحسي، فالعقل هو الذي يمدنا بمعنى الواجب. ويقوم هذا الواجب على الإرادة الحرة، وهي إحدى المسلمات التي لا بد منها للأفعال الأخلاقية فضلا عن ثلاث قواعد أساسية:

القاعدة الأولى: " افعل كما لو كان على مسلمة فعلك أن ترتفع إلى قانون طبيعي عام ". ذلك أن الشخص لا يحيل المبدأ الخلقي الذي انطلق منه في عمله الخلقي كالمنفعة إلى قانون أخلاقي يعممه على جميع الناس، فالإنسان المخلص لغرض نفعي ما، وكان منطلقه مبدأ منفعته الشخصية، لا يحول المبدأ الأخلاقي إلى قانون خلقي قابل للتعميم.

القاعدة الثانية: " افعل الفعل بأن تعامل الإنسانية في شخصك وفي شخص كل إنسان، بوصفها دائما وفي نفس الوقت غاية في ذاتها، ولا تعاملها أبدا كما لو كانت مجرد وسيلة ". فالشخص الذي يعطي وعودا كاذبة إنما يتخذ الآخرين مجرد وسائل من أجل تحقيق رغبات ومنافع معينة من غير أن يلتفت إلى أن لهم حقوقا بصفتهم كائنات عاقلة أو غايات في ذاتها.

القاعدة الثالثة: " اعمل بحيث تكون إرادتك باعتبارك كائنا عاقلا هي بمثابة تشريع عام ". ويقتضي ذلك ضرورة الخضوع للقانون باعتبارنا مشرعيه، وما دامت إرادتنا هي بطبيعتها خاضعة للقانون، فإنه لا بد لهذه الإرادة من حيث هي غاية في ذاتها أن تكون مصدر هذا القانون أو التشريع، لأن خضوع الإنسان للقانون الأخلاقي يرجع إلى أنه مشرعه في الوقت ذاته.

2 ـ الأخلاق النسبية

يعتقد أنصار هذا الرأي وهم فلاسفة المذهب الاجتماعي ومذهب اللذة والمنفعة أن القيم الأخلاقية نسبية ومتغيرة، لأن أساسها المجتمع والمنفعة وكلاهما متغير ونسبي.

يرى فلاسفة المذهب الاجتماعي أن الإنسان لا يعيش لذاته، ولا في عزلة عن غيره، بل إن أفعاله تؤثر في الآخرين، كما يتأثر بأفعالهم إن كانت خيرا أو شرا. وانطلاقا من هذه المسلمة يؤكد **إميل دوركايم** بأن الأخلاق ظاهرة اجتماعية. ذلك أن الأخلاق تبدأ حيث التعلق بجماعة، والفرد يجدها تامة التكوين في المجتمع الذي يكون فيه، يكتسبها عن طريق التربية والتنشئة الاجتماعية التي تمنحه المبادئ الأخلاقية ، لهذا كان الضمير الأخلاقي الفردي مجرد صدى لأحكام الوعي الجماعي وإرادته. وقد أكد ذلك دوركايم بقوله: (المجتمع ليس سلطة أخلاقية فحسب ، بل إن الدلائل تؤكد أن المجتمع هو النموذج والمصدر لكل سلطة أخلاقية) كما قال أيضا: (ليس هناك سوى قوة أخلاقية واحدة تستطيع أن تضع القوانين للناس هي المجتمع). وقد ذهب **ليفي برول** إلى اعتبار الأخلاق ظاهرة اجتماعية لها قوانينها، ويدرس علم الأخلاق الأفعال الإنسانية كما تلاحظ في الواقع، وليست القيم سوى مظهر للجماعة تابع لمعتقداتها وعلومها وفنونها وعلاقاتها بالجماعات الأخرى، ولهذا اختلفت الأخلاق من مجتمع إلى آخر، فلا توجد أخلاق بل توجد عادات خلقية.

أما فلاسفة مذهب اللذة والمنفعة فيرون أن السعادة هي غاية الحياة، بل هي غاية الغايات للإنسان، ولا تحصل هذه السعادة ولا تتحقق إلا بتحصيل اللذات وتجنب الآلام، من هنا كانت اللذة هي الخير والفضيلة، والألم هو الشر والرذيلة، لذلك على الإنسان أن يطلب أكبر قدر من اللذة وأن يسعى ويجتهد في الوصول إليها، لأنها أساس تحقيق السعادة، وأن الإخفاق في تحصيلها هو الألم

والشر، ومن أشهر رواد هذا المذهب " أبيقور " و " أرستيب " ، يقول أبيقور: (إن السعادة أو اللذة غاية الإنسان، ولا خير في الحياة إلا اللذة، ولا شر إلا الألم، وليس للفضيلة قيمة ذاتية، إنما قيمتها في اللذة التي تصحبها). ويؤكد أبيقور أن اللذات العقلية والروحية أهم من اللذات البدنية، وأن خير لذة تطلب هي لذة " طمأنينة العقل وراحة النفس " ولذة " الصداقة " والابتعاد عما يسبب القلق والاضطراب والآلام.

كما رأى كل من الفيلسوفين الانجليزيين "جون استوارت مل " و "جيرمي بنتام"، أن أكبر ما يمكن من السعادة لأكبر عدد ممكن من الناس هو أساس الأخلاق ومعيارها، أي تحقيق أقصى ما يمكن من المنافع والسعادة واللذات بجماعة معينة، وهذا يقلل من عدد الأفراد الذين يشعرون بالألم ويحقق المصلحة الجماعية، ولهذا وضع " بينتام " مقياسا لحساب اللذات قصد الوصول إلى تحقيق أكبر قدر من المنافع للجميع، وهذا المقياس ينطبق على الأفراد كما ينطبق على الأمة قاطبة، لأن الخير هو ما يكون نافعا لنا، وما هو نافع لنا يكون في الوقت نفسه نافعا لغيرنا، والعكس صحيح.

3 ــ متغيرات الأخلاق ضمن ثوابتها:

إن هدف أي نظام أخلاقي هو جلب المصالح ودرء المفاسد، ولما كانت المصلحة هي الخير العام والمطلق، فإنها ثابتة لا تتغير وواحدة لا تتعدد ، ولكن القيم الوسيلية التي تسعى لتحقيق هذه القيمة (القيمة المطلقة) قد تتغير بتغير الظروف، وهنا لا يتحول الخير إلى شر ولا الشر إلى خير، وإنما الخير المطلق واحد هو المصلحة المعتبرة شرعا وعقلا، والموجهة إلى الفرد والمجتمع، والذي تغير هو القيم الوسيلية، ذلك أن الغاية الأخلاقية وحدها هي التي تبرر الوسيلة. ومعنى هذا أن الأخلاق ثابتة في مبادئها وأهدافها، ومتغيرة ونسبية ومتطورة في تطبيقاتها. ولنأخذ الصدق كمثال، فالصدق قيمة أخلاقية مطلقة عندما ننظر إليها كفكرة مجردة، أما عندما ننظر إليها كممارسة، فإننا نجد لها استثناءات مثل حالة إصلاح ذات البين.